عشرون يوماً هزت العالم

سينما الواقع الشاذ

القسم السابع

وارد بدر السالم

★هكذا ابتدأ المشهد السينمائي بعد سقوط النظام، وهكذا زحفت الجماهير المنعتقة من كابوسها الثقيل لتسقط شجرة العاصمة ورقةً ورقة وتعرّي بغداد قطعةً قطعة وتستبيحها استباحة جماعية بعيون لا تطرف لها الأجفان وقلوب لا تهتز لمرأى النار وهي تأتي على بنايات عملاقة ولا تتركها إلا هياكل مجردة، وزارات ودوائر حديثة البناء أتت عليها وحوش كاسرة وأخرجت ما فيها من أثاث وأجهزة كهربائية وأضابير وملفات وألقمتها الى حريق تلو حريق وبمراحل محسوبة وأوقات مدروسة لم يكن أحد من العتاة ينتبه لها.

★قال مواطن وهو على درجة من الهستيريا : "أنا آخذ حقي الذي سرقه مني صدام حسين!" وكان يهشم باباً كبيراً لغرفة من غرف المجمع العلمي العراقي دون أن يقلعه ويأخذه الى بيته!

★وصاحت امرأة بين جموع منهمكة بالسلب والنهب في مبنى الاتحاد العام لنساء العراق "هذا يوم إبني الشهيد"

★وصاح رجل مسن في داخل بناية المعهد القضائي" هذا يوم الثأر".

★وكان أحد الشباب يهيئ دواليبَ من الأضابير في غرفة من غرف وزارة الدفاع ليحرقها وهو يقول لشخص لا يسمعه "وداعاً للعسكرية التي قتلت شبابنا ورجالنا وثكلت نساءنا".

★بين هذا وذاك كانت الفريسة تستسلم بتواطؤ الجميع الذين قرروا الركون الى الصمت في آخر المطاف والإنشغال بكسر أقفال العمارات العالية والهجوم على الحواسيب ومكيفات الهواء والتلفزيزنات واطباق الستلايت التي كشفت عن حرمان كبير لأبناء الشعب الغيارى ! والهجوم على بيوت المسؤولين التي تحتوي على ما لذ وطاب من المنوعات أو التحفيات النادرة ؛؛ ولا جدوى من البحث عن التبريرات ما دام الشعب يسرق الوطن ثأراً من صدام حسين!

خيول عدي

بموازاة ذلك شهدت الشوارع سرقات جميع سيارات الوزارات والدوائر الحكومية وشبه الحكومية والخدمية وسيارات المسؤولين الكبار، وأستغلت للسرقات على وجه التخصيص ، ولا تستغربوا إذا قلت لكم أن خيول عدي صدام حسين سرقت هي الأخرى من مزارعه ولنفس الأغراض !! ومن مضحكات البلية إننا رأينا حميراً تحمل ثلاجات ومكيفات هواء وقطع غيار مختلفة!!

★لم يعد مستغرباً أن نرى سيارات الإسعاف وسيارات الشرطة وسيارات الزبالة تحمل المسروقات الكثيرة والكبيرة ، بعد إن استولى عليها الصغار والكبار في ضياع السلطة وهربها ؛ وليس من المستغرب أيضاً إن الذين لم يحصلوا على سيارات وحمير وخيول ، لجؤوا الى استئجار هذه السيارات بمبالغ خيالية جداً وصلت الى ربع مليون دينار للمرة الواحدة !! ليقين المؤجر إنه يحمل بضاعة كهربائية من الحاسبات والمكيفات تتجاوز بضعة ملايين دينار ! ومَن لا يملك نقداً فورياً عليه أن يعطي السائق حصة من المسروقات يتفق عليها سلفاً ، والطرفان سيكونان رابحين في الأحوال كلها!

★سيارات نقل الركاب الخدمية كبيرة الحجم سُرقت هي الأخرى ، لكن معظمها وُظف لنقل اللصوص الى أماكن كثيرة في بغداد مقابل أجور زهيدة ، كما وُظف البعض الآخر منها لنقل الناس المحاصرين في البيوت الى مناطق مختلفة من العاصمة ، ولعل لصوص هذه السيارات كانوا من (أظرف) اللصوص الذين اشتغلوا بعرق جبينهم!

★منذ الصباح الباكر ترى أسراب الناس زرافات تتخذ سبيلها الى دوائر الدولة المختلفة ، مستفيدة من معوقات اليوم الماضي ، فهناك بعض الدوائر والوزارات عالية الأبواب ، وقد يكون بعضها محمياً بأقفال كبيرة ، لذا كان التهيؤ الليلي مطلوباً جداً ، وفي الصباح الباكر نرى الجموع والحشود وقد تمنطقت بالأحزمة التي تتدلى منها الفؤوس والحراب والمسدسات وأسياخ الحديد ، إضافة الى الإصرار العنيد على اقتحام أي مكان مهما علا شأنه وذاع صيته ، وعادة ما تكون الوجوه عابسة ومكظومة ، ولا تزال غريزة الثأر مرسومة في عيونها ، ويكاد المشهد الصباحي يكون مفزعاً ، لاسيما إن آلافاً من الأسر البغدادية عادت من هجرتها المؤقتة من الضواحي والقصبات والقرى القريبة ، لتنضم الى هذه القوافل المحشورة في الأرصفة والطرقات والدوائر بتحدٍ سافر لأخلاق المجتمع وثوابته الاجتماعية ، حتى عقب أحد الضباط الأمريكيين وهو يشاهد أيام الحشر الأكبر في بغداد قائلاً : (لو كانت كل هذه الحشود تواجهنا حتى وهي غير مسلحة لما استطعنا أن ندخل بغداد)!!

المستشفيات

عندما وصل الأمر الى المستشفيات كانت الكارثة تحل بيننا ؛ عندها يمكن تفسير الأمر على إنه مؤامرة خارجية تنفذ من الداخل ! وعندما وقفتُ على مستشفى (حماد شهاب) وهو خارج العاصمة أساساً أدركت إن اللعبة الخطرة بدأت تتكشف ، وكان القائمون على المكان يؤكدون إن الوجوه التي دخلت المستشفى وانتزعت المرضى من أسرّتهم لم تكن وجوه لصوص !! بل كانت وجوهاً حاقدة ومرتبكة

نهبت أجهزة ثمينة ودمرتها خارج البناية ! وألقت بأسرّة المرضى على الشارع العام!

وقد تكرر المشهد في مستشفى (كمال السامرائي) ومستشفى (ابن رشد) ومستشفى (الأولبي) وكنتُ شاهداً على الخراب الداخلي لهذه البنايات الطبية ، ورأيت محتوياتها المنزوعة على الأرصفة وأجهزتها الثمينة المحطمة (وبعضها نادر) وأدويتها المبعثرة في الأرجاء كلها، كأنما الأيدي التي عبثت بها كانت تبحث عن شيء ما! أو كانت لا تبحث عن شيء سوى أن تخرّب وتمضي ! وليمُت العراقيون على قارعة الطريق!

ولعلكم قرأتم عن مستشفى الطب الذري الذي داهمه الغوغاء وسرقوا محتوياته الخطرة ، ويضمنها لقاحات الفيروس الكبدي الذي يتسبب بكارثة صحية لمجرد انتشاره في الجو ، كما سمعتم بلا شك بهروب عشرين ألف ذبابة حلزونية كانت موضوعة في المختبرات لأغراض طبية مباشرة!

عصابات مسلحة

خلال يومين فقط تشكلت عصابات مسلحة مخيفة في بغداد ، وكانت أسلحتها من البنادق والمسدسات والرمانات اليدوية ومن القاذفات أيضاً ! قوامها شباب وجدوا الفرصة سانحة للتشبه بأفلام العصابات والتدرب على القتل والثأر من أشخاص معينين ، سواء كانوا حزبيين أم غيرهم . وشهدت منطقة (الميدان) انفلاتاً لا مثيل له ، وأصبحت لأيام عصيبة منطقة حرام يصعب المرور فيها ، بسبب أعمال العنف والقتل المجاني في أزقتها ومنعطفاتها الضيقة ، وكانت بؤرة لسرقات جماعية مكشوفة وسافرة لوزارة الدفاع التي أخليت بكاملها وانتزعت حتى أبوابها وشبابيكها (وسيفونات) مراحيضها ! فيما ظلت بناية المحافظة نهباً لسرقات يومية لم يتجرأ أحد غير أهل المنطقة على سرقتها بالكامل ومن ثم حرقها في وضح النهار ، ولعل فاجعة سرقة (بيت الحكمة) أكبر من أن توصف ؛ فهذا الصرح الثقافي انتزعت أحشاؤه وألقيت على الأرصفة وبيعت بأرخص الأسعار ، لاسيما الكتب التي تهتم بالتاريخ العراقي القديم والمعاصر ، وكان هذا البيت من حصة أهل المنطقة أيضاً ، ولم نشهد عصابات وافدة من مناطق أخرى اهتمت بهذا (الشأن الثقافي) فأهل مكة أدرى بشعابها ؛ لكن العصابات الأخرى وفدت الى وزارة الدفاع الملاصقة لبيت الحكمة ، بسبب سعتها وتوفرها على مخزنٍ كبير من الأثاث والأجهزة الكهربائية والمستلزمات القرفية والقرطاسية ؛ كما إنه من العدل أن يشترك الجميع في هذه الفريسة الضخمة ؛ فهي بيت الحروب والعسكرية التي أكلت أجيالاً تلو أجيال!

مشهد عرضي

في ظهيرة من ظهيرات الميدان ، تعالى صراخ لنساء جوار جامع الحيدرخانة بعد انفجار مفرقع تردد صداه قريباً ؛؛ كان ثمة رجلٌ يتلوى على بركة دم ، وعلى مقربة منه ثمة صبي يدور غير آبه بكل ما يحيطه من فوضى وصراخ ، كما لو أدى واجباً لابد منه ، هذا الصبي المستهتر ألقى على جاره رمانة يدوية لأنه لم يجربها سابقاً وظل في المكان يدور كنمرٍ صغير يتحدى مَن يتصدى له ، ففي جعبته رمانتان أخريان.

وأمام بناية الاتحاد الوطني لطلبة العراق كانت جثة لامرأة طاعنة في السن وقد مزقها الرصاص المتبادل بين عصابات مختلفة ،

والى يومين متعاقبين كانت الجثة متروكة كإنما كانت جثة كلب!

جراد هولاكو

جثث وضحايا وانفلات وخوف وسرقات ونهب وسلب وحرق وأسلحة مختلفة بيد الصبيان والصغار ، جو محموم ، متفجر محترق . رماد وفحم ونيران عالية لا يريدون إطفاءها . أصابع غريبة تمسك أزرار العمارات والوزارات والبنايات الحكومية وتفجرها في أية لحظة ، أمريكيون متواطئون يتفرجون على الدمار والخراب وغرباء مشخّصون من لهجاتهم الصحراوية قدموا مع الجيش الأمريكي ، وهم يتهامسون بهواتف الثريا مع مصادر مجهولة كانت تدلهم على أمكنة بعينها ، وبعثيون منهزمون يريدون تعكير الخراب بأية طريقة ، ومجتمع هرب من الأسر الطويل الى فضاءات مشحونة بالفوضى وفقدان الرقابة؛ غير مصدق أن لعنة صدام حسين ستختفي من حياته والى الأبد ؛

فلم يحسن التصرف ؛ فأساء الى وطنه أمام الأغراب الذين بهتوا وهو يرون موجات البغداديين المتدفقة كالجراد المفترس تلتهم بغداد وتحرقها كما أحرقتها جيوش هولاكو قبل قرون..

هناء مال الله وسيرورة اللوحة

الشكل الأيقوني للمثلثات المقلوبة بين الاستراتيجية التقليلية .. وخرائط الرسم الجينية

خالد خضير

تمتد مرجعية الرسامة هناء مال الله الأيقونية إلى مصادر غائرة في القدم تعود إلى أشكال الغزلان الدائرة حول نبع ماء في أواني سامراء الفخارية ، والتي خضعت لتحولات شكلية انتهت بها إلى الشكل الأيقوني للمثلثات المقلوبة وتنويعاتها، وقد اتخذت في فترات لاحقة شكل الأكتاف الواسعة للإلهات الأفاعي التي رُصعت ببقع فخارية، و إلى أشكال رؤوس الثيران، وعلامة كلمة (امرأة) في الكتابة التصويرية التي انبثقت عنها الكتابة المسمارية.

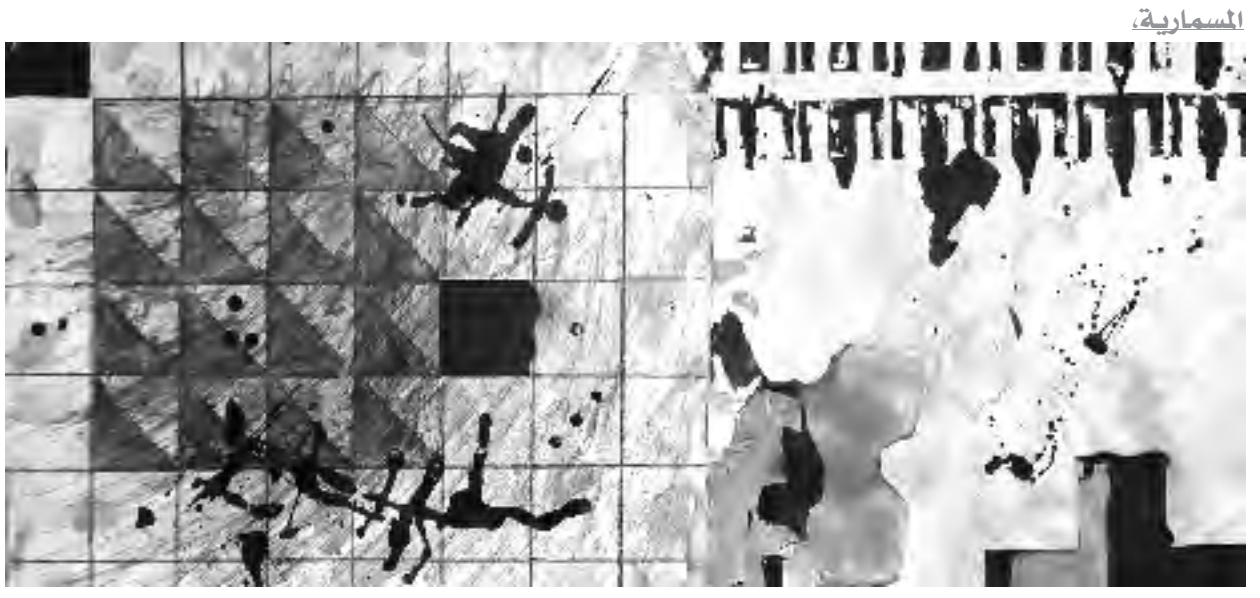

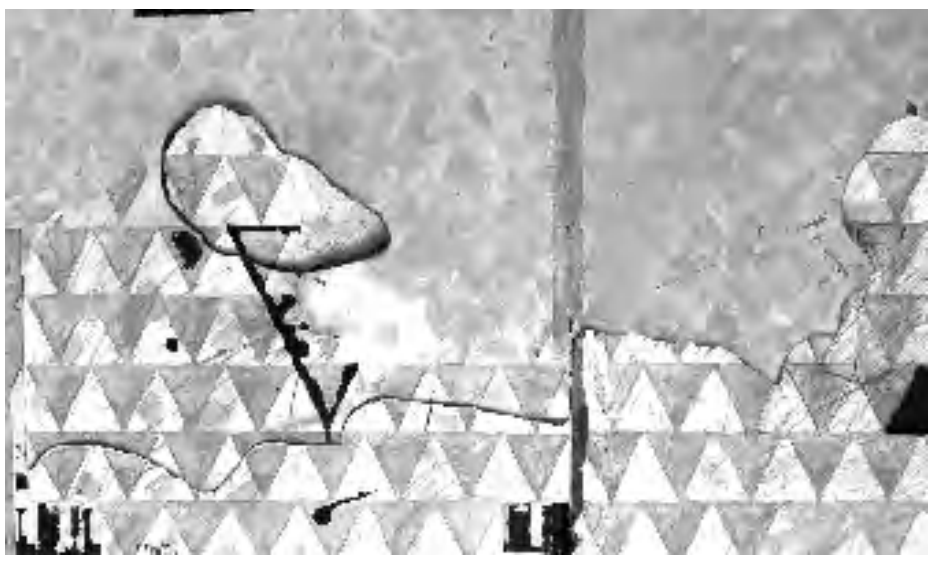

حيث كانت تلك العلامة بشكل العضو التناسلي للمرأة، وأشكال المثلثات المتقابلة بالرأس داخل مربع، والمربعات التي تؤلف أرضية شائعة ترصف بها لوحتها كما كان العراقيون يرصفون معابدهم بالطابوق المربع (الفرشي) ، وبذلك تؤكد هناء مال الله تقشف وسائلها التعبيرية، واتجاهها نحو استراتيجية تقليلية تكتفي من الناحية الشكلية بعدد محدود من العناصر كالنقطة والمثلث والمربع ونثار بقع الحبر والمعراج الخطي الذي تتحرك فيه النقطة من بدايته إلى نهايته مخلفة وراءها معراجا خطياً بعد أن تكون قد تجولت في بياض اللوحة دونما مخطط مسبق.

مثلما اتخذ الفن العراقي القديم استراتيجية ترميزية وتجريدية باستخدام وسائل مشخصة عبر إجراء تحولات اختزالية مستمرة على تلك الأشكال نحو أزلها الشكلي المبسط، حيث تحولت الغزلان الأربع الدائرة في محيط أواني سامراء الفخارية إلى أبسط أشكالها(أربعة مثلثات متقابلة)، وتحول شكل الثور إلى مثلثين مقلوبين ملتصقين بإحدى زواياهما العلوية، وتحولت النساء الدائرات في محيط أحد تلك الأواني إلى شكل الصليب المعقوف، اتخذت هناء مال الله أيضاً ذات الاستراتيجية، واكتفت بالتحوير ، والتقليل الشكلي، مستلة من أيقونات الفن العراقي القديم، أولاً، أشكالاً تشخيصية لأيقونات الإلهات الأفاعي والبقع التي على أكتافها، ثم أخضعتها للتحوير والأسلبة بمرور الوقت لتنتهي إلى كشوفات، قد تكون استثنائية في ما مضى من تجارب الفن العراقي، فتحولت النقطة إلى ثقب ناشئ من خرق سطح اللوحة بفعل الحرق، وتحول الصليب المعقوف إلى خرق في سطح اللوحة بشكل علامة الجمع التي سبق لها أن استخدمتها علامة في لوحاتها وتخطيطاتها السابقة، و بذلك يتضح أن الرسامة هناء مال الله قد ملأت ذاكراتها بأشكال تعلمتها ثقافياً فأصبحت لاحقاً مصدرها الشكلي، وبذلك يكون الوصول إلى التجريد عندها مستحيلاً طالما كانت كل المجردات التي تظهر في منجزها أشكالاً واقعية موجودة في ثقافتها الفنية التي عايشتها في المتحف العراقي أي أن الفن العراقي القديم كان قد طبع بصمته التي لا تمحى من منجزها ، فكان مرجعية أيقونية لها.

تكشف هناء مال الله عن نمط من (ذاكرة مدونة للرسم)، تشكلها أعمالها التي تؤلف (خارطة جينية)، تنتقل شفراتها العلامات الإشارية من مرحلة تحول إلى أخرى، ومن مادة إلى مادة، بعد أن تتم إعادة موضعتها على سطح اللوحة في كل مرة، حينات تخلق أشكالاً تتوالد شكلاً من آخر كما تتوالد أجيال الكائنات وفق خرائطها الجينية التي يعاد توزيع مفرداتها، فقد واصلت عناصرها الأولى الانتقال من تخطيطاتها، منذ عقد مضى من الزمن، إلى لوحاتها ودفاترها، تماماً مثلما كانت بعض عناصر لوحات أستاذها شاكر حسن آل سعيد من منجزه السابق في الخمسينيات تظهر خلال مراحله التجريدية التالية بعد عقود.

تتصف لوحة هناء مال الله بكونها مؤهلة على التمرد ضد فكرة وجود إطار لها وبشكل يجعل وجود ذلك الإطار اختياراً اعتباطياً ، فلوحتها مكتظة بنزوع قوي للتوسع في اتجاهاتها الأربعة، فقد تمتد، إلى مالا نهاية، أرضيتها المرصوفة غالباً بالمربعات ومتواليات المثلثات ومجزئاتها لولا وجود ذلك الإطار الذي يكبح امتداداتها، بل وتقدم الفنانة مقترحات للانفتاح خلال بُعد ثالث، فهي تضع نتوءات بارزة تنبثق من سطح اللوحة نحو المتلقي، مشكلة مقترحات لاحتمالات إعادة توزيع لا نهائية لسيرورة اللوحة من خلال مشاركة المتلقي في إعادة بنائها مهتدياً بتلك الأجزاء (المتحركة) للوحة، تماماً كالمنحوتات ذات الأجزاء المتحركة للنحات كالدر، فالرسامة تضع تلك البروزات ليعلق المتلقي عليها المقترحات المتعددة التي قامت الرسامة بتوفيرها مع لوحتها، ليختار المتلقي بعضها، ويهمل البعض الآخر، لتكون لوحاتها مشروعاً دائماً لإعادة الرسم بإضافة الهوامش عليها، تماماً كما تتوسع المخطوطات بتراكم الهوامش وهوامش الهوامش، فتكون تلك اللوحة نصاً مفتوحاً يكتبه الجميع.

لقد انتقل اهتمام الرسامة هناء مال الله من الشكل الخارجي للأشياء (نسخ التماثيل العراقية القديمة)، وهو ما كان واضحاً في تخطيطاتها التي كانت تنشرها قبل ما يقرب من عقد في الصحف والمجلات، إلى اهتمامها بالأشياء نفسها باعتبارها أثراً إيقونياً وخريطة جينية لتجربتها كلها وبذلك تنتقل الفنانة من البنى الشكلية باتجاه تطوير المعالجات التقنية للمادة وهو ما كرسته الفنانة في أعمالها الفنية.

وفي هذا يؤكد الناقد شاكر حسن آل سعيد (أن منجزها يمثل بوضوح هاجس (الحوار) ما بين اللون والشكل في رؤيتها الفنية... حيث (استشفاف) وحدة (الإيقاع) في الخطاب الفني بالرغم من (تعددية) العناصر الدلالية يظل بمثابة وضوح (المفصل) الذي تلتقي فيه (دوال) الأثر الفني التشكيلي مع بعضها البعض.فهناك فناء متبادل ما بين الألوان والخطوط والأشكال والحركة الخ.. تحاول الفنانة تحقيقه... إنها تعامل (اللون) في اللوحة كأكثر من كونه (خامة) أي كوجود مادي (طبيعي) أو ثقافي في آن واحد).

من أجل عالمية الثقافة مكننا أن نتبادل الاعتذار

علي حسن الفواز

هل يمكننا أن نتبادل الاعتذار؟ وهل يمكن لنا أن نختبر الحوار واقتراح عدالة توزيع الأخطاء وأن يحمل كل منا حقائبه المسلحة ويرحل إلى جهة النعاس؟ فالمتحاربون والمنفعلون والانتمائيون جداً لا ينامون جيداً ويتملكهم إحساس دائم بالقلق والأرق وارتفاع ضغط الدم.إن العالم يبحث عن حلول حقيقية لمشاكله المعقدة، ويبحث عن فضاءات أكثر سعة لممارسة طقوسه الإنسانية في الخصب والعمران والجمال، ولعل تاريخ الحروب الطويلة ونتائجه الكارثية منذ أن ارتبط الإنسان بقانون الإنتاج والبضاعة والتسويق وصار طرفاً في الصراع الطبقي، هو تأكيد لضرورات السلام والبحث الواقعي والرومانسي عن العدالة والحرية، فالحروب عادة تصنع منتصراً وتصنع مهزوماً، والمنتصر سيأخذ كل حقوق المهزوم وهذا ما يؤسس عقد المظلومية والاضطهاد والقهر.

لقد تطورت تقنية الحروب وتقنية الصراع ومفهومات الصراع الطبقي وقوانين السيطرة والاستثمار حتى صارت تدخل في اللغة والاقتصاد والحب والسياسة والعلوم والخطابات الدينية وبرامج التربية والإعلام، وصرنا ندخل في متاهات هذه الحروب والصراعات والاختلافات والأخطاء دون إرادة منا، لأن (المواطن) ومنذ زمان طويل هو ابن (الحكومات) وابن السيد السلطان!! وإن حروب هذا السلطان هي حروبه الشخصية وحروبه العقائدية، وربما أصبح الآن جزءاً من سلطة المعلوماتية التي تضخ إليه يومياً ملايين المعلومات حد إزاحة عقله (الولادي) لمصلحة عقل تصنعه مؤسسات الحروب والإعلام والإرهاب والجنس.

إن مستقبل البشرية إزاء هذه المعطيات يبدو غائماً وغير مسيطر عليه!! خاصة ونحن نعيش في عالم (السوق السياسية) التي لا يثق فيها أحد بالآخر!! وهذا يجعل الحوار في عطالة دائماً ويجعلنا نبحث عن حلول شخصية أو قومية أو عقائدية. وهي تختلف بالطبع عن حلول الآخر الذي لديه قواعده واستنتاجه ومصالحه. وهذا ما يجعل الكثير من الحروب وتصفية الحسابات وتصفية الأفكار والأجساد تأخذ هذا الشكل اللاحلولي.

فهل ينبغي أن نعيد الحديث عن حوار الحضارات وحوار الثقافات وحوار الأمكنة وحوار العقائد؟ وأن ندعو السيد (هنتنغتون) لتغييرطروحاته عن (صراع الحضارات) وندعو (السيد البابا) للحديث عن حروب بيض وليست صليبية، وندعو علماء المسلمين والمرجعيات الدينية للحديث عن خطاب العقل وخطاب المنطق خاصة إن تاريخنا الإسلامي حافل بفضاء الجدل حتى القرن الخامس عشر، وإن انقلاب القرون المتأخرة هو انقلاب في الوعي بسبب انتشار ظاهرة الحروب الدامية وظاهرة الاحتلالات الجغرافية والعقلية وبالتالي مهدت الطريق لنشوء ظاهرة العقائد المغلقة والإرهاب الفكري ومحاولة تحصين الأفكار عن الآخر الاحتلالي بمحابس وأوهام وطقوس وشفرات وأسلحة!!

من هنا ندعو للمكاشفة في العقل الإسلامي والعقل المسيحي وكل أطياف العقل الكوني والاعتراف بتاريخ الأخطاء وتاريخ الحروب الطويلة والاعتراف بعالمية الأرض والأفكار والجمال والحرية. لإنقذا ما تبقى من الحالمين ربما سنجعل الطريق إلى الكواكب الآخرى أكثر أماناً وسلاماً.

نصوص من الحياة بعد الحرب

نصير غدير

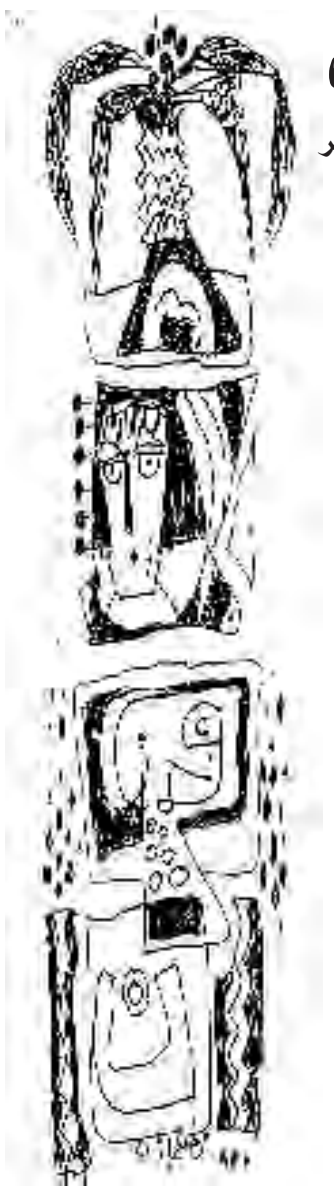

-١-
لقد تورطت أنفاسي بك،
واختلطت،
كان باب الحديقة
مواربا على الشارع،
ونحن نبحث عن التاكسي
حين ارتج الرصيف،
واختلطت الأضواء
على نفسها، وخجلت،
كانت النار تنبعث،
خلف الحبيبين،
وهما يقفزان
باتجاه الحياة؛
الحبيبان والنار،
وكان ضوء التاكسي
مكسوراً، وكان
المعجل ينزدماً،
وكان باب الحديقة
مخلوعاً، وكان ظلي
يختلط بظلك،
وكنت أحضنك
وترتجفين.
-٢-
أتعرفين الإحساس؛
الإحساس بالوصول
إلى الأرض
وأنت تنزلين
السلم في الظلام
درجة درجة،
والأرض النهائية،
هكذا
أحبك،،
أو أتعرفين
التفكير بإحساس؛
إحساس الممثل
المغمور، الثانوي
دائماً؛ دائماً طوال
حياته، وهو يمر
بي، على الناصية،
هكذا أيضاً
أحبك.
-٣-
حسناً؛
تخيلي فقط
كيف أحبك؛
الرجل وامرأته
يحضران العشاء
في المطبخ؛ المطبخ
الملون، الملون
المضاء، المضاء
المفتوح، المفتوح
على غرفة المعيشة؛
في الغرفة ظلمة
هادئة ودافئة،
في أقصى الغرفة
كرسي خشب، عليه
ربطة عنق؛ مسبلة
عليه، ومن أسفل
قدم الكرسي، وعلى
زواياه الحادة من
اليمين، إلى زجاجة
نافذة من عدة بوصات
إلى مصباح الحديقة،
يوجد ضوء،
ضوء وحيد،
ودافئ،
تخيلي،
تخيلي فقط.